Al-Hajjaj in the Arabic Grammar Book Dr. Ibrahim Al-Samarrai

Assist. Prof. Mayassa Waleed Taha, PHD
University of Baghdad \ College of Education
Ibn Rushd for Human Sciences
mayassa.waleed@ircoedu.uobaghdad.edu.iq

DOI: 10.31973/aj.v1i140.1788

Abstract:

The rational nature of Arabic grammar imposes Hajjaj (The argumentative) aspect on everyone who rejects the logical grammarians' opinions or tries to renew in its chapters in an effort to facilitate it. Among these attempts is the book of Grammar. Which it is constructed and criticized by Dr. Ibraheem Al-Samarrai.

The research monitored Hajjaj methods on which the Arabic grammar book was built as criticism and construction. Which is a criticism based on rejection, discussion and dialogue for a grammatical intellectual construct that views language as a science that simulates other sciences in its development and renewal. This is governed by the philosophical thought that adopted by the grammarians in their writings. As they were influenced by the discussions of the fundamentalists and speakers' analytics.

This study came on two axes. Firstly: Dealing with the methods of Hajjaj and the other: dealing with the manifestations of Al – Hajjaj. It is based on the saying of Al-Samarrai: ((In this research I conducted a criticism of the old grammar to show what it contains of materials and methods that are not from it. And to state to the reader on what can be knows it from grammatical science in order to distinguish between correct and incorrect)). Which reveals his protest against the opinions of the ancients according to what is governed by modern linguistic usage.

Keywords: Al – Hajjaj, Arabic Grammar, Al – Samarrai.

الحجاج في كتاب النحو العربي للدكتور إبراهيم السامرائي

أ.م.د. مياسة وليد طه

جامعة بغداد /كلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية

(مُلَخَّصُ البَحث)

إن الطبيعة العقلية للنحو العربي تفرض الجانب الحجاجي على كل من يرفض آراء النحاة المنطقية، أو يحاول التجديد في أبوابه سعيا لتيسيره ومن تلك المحاولات كتاب النحو، نقد وبناء للدكتور إبراهيم السامرائي.

لقد رصد البحث أساليبا حجاجية بني عليها كتاب النحو العربي بوصفه نقد وبناء، وهو نقد قائم على الرفض والمناقشة والحوار لبناء فكري نحوي ينظر الى اللغة بأنها علم يحاكي سائر العلوم في تطورها وتجددها وذلك ما يحكمه الفكر الفلسفي الذي اعتمده النحاة في مؤلفاتهم، إذ تأثروا بمناقشات الأصوليين وتحليلات المتكلمين.

جاءت هذه الدراسة على محورين، أحدهما: تناول أساليب الحجاج، والآخر: تناول تجليات الحجاج، وذلك انطلاقا من قول السامرائي: ((لقد جريت في هذا البحث على نقد النحو القديم لأظهر ما فيه من مواد وأساليب ليست منه، ولأوقف القارئ على ما يمكن ان يعرفه من العلم النحوي ليميز بين الصحيح وغير الصحيح)) ما يكشف عن احتجاجه على آراء القدماء وفق ما يحكمه الاستعمال اللغوي الحديث.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، النحو العربي، السامرائي

مداخل تعريفيَّة:

أوَّلاً: الحجاج:

لغـة: الحِجَاج مصدر من الفعل (حاجَّ – يُحاجُّ)، "يقال: حاجَجْتُه أُحاجُّه حِجاجاً ومُحاجَّةً حتى حَجَجْتُه أَي غَلَبْتُه بالحُجَجِ التي أَدْلَيْتُ بها... والحجة البرهان وقيل: الحجة ما دافع به الخصم" (ابن منظور، ١٤١٤هـ: ٢/٢٢٨) (Ibn Manzur, 1414 A.H: 2/228)، وأصل الحج القصد ورجل محجوج أي: مقصود، والتحاجُّ التخاصُم (الجوهري، ١٩٨٧: ١/٣٠٤) (Al-Jawhari, 1987: 1/304).

واصطلاحًا: "كل منطوق به موجَّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقُّ له الاعتراض عليها" (عبد الرحمن، ١٩٩٨: ٢٢٦) (Abdulrahman, 1998: 226)، فهو "درس تقنيات الخطاب الَّتي من شأنها أن تؤدِّي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم" (صولة، ٢٠١١: ١٣) (Sawla, 2011:

13) ، أي أنَّـه : سلسلة مـن الحُجـج يتضـمّنها الخطـاب المنطـوق أو المكتـوب يـأتي بهـا المُرسِلُ لإقناع المُرسَل إليه.

وغايـة الحجـاج الإقنـاع، فهـو مجـال البحـث الحجـاجي (أبـو مصـطفى، ٢٠١٩: ١٠) (Abu Mustafa, 2019: 10) ، لأنَّه يُمثّل سلطة "المرسل في خطابه، ولكنَّها سلطة مقبولة إذا استطاعت أن تقنع المرسل إليه" (الشهري، ٢٠٠٤: ٤٤٦) (Alshahri, 2004: 446) ، وعليه فإنَّ الحجاج آليَّة إقناعيَّة تخفِّفُ علاقة استدلاليَّة وفق استراتيجيَّة تواصليَّة تقتضـي وجـود قصـدين، أحـدهما: قصـد الادِّعـاء الَّـذي يـرتبط بالمُرسِـل، والآخـر: قصـد الاعتراض الَّذي يرتبط بالمُرسَل إليه، وذلك باستخدام الحوار وصولاً إلى التأثير في الأذهان فـ"غاية كـلّ حجـاج أن يجعـل العقـول تـذعن لمـا يُطـرح عليهـا أو يزيـد فـي درجـة ذلـك الإذعان"(صولة، ٢٠١١: ١٣) (Sawla, 2011: 13).

فضـلاً عن أنَّ الحجاج "فعّالِيَّة تداولِيَّة جدليَّة، فهو تداولي؛ لأنَّ طابعة الفكري مقامي واجتمـاعي... وهـو أيضًـا جدلي لأنَّ هدفـه إقنـاعي قـائم علـى التزام صـورٍ استدلاليَّة" (عبد الرحمن، ٢٠٠٠: ٦٥) (Abdulrahman, 2000: 65).

إنَّ ارتباط الخطاب الحجاجي بالبعد التداولي يُظهر العلاقة الاستدلاليَّة الَّتي تتجسَّد في الإقناع وصولاً لإثبات دعوى المُرسِل بالاستناد إلى قدرته على أن يُجرّد من نفسه ذاتاً ثانيةً ينزلها منزلـة المرسَل إليـه المعترض فيستحضـر الاعتراضـات مـع الإجابـة عليهـا باسـتخدام أسـلوب الحـوار والمناقشـة مُراعيًـا "كـلّ مسـتلزماته التخاطبيَّـة مـن قيـود تواصـليَّة وحـدود تعامليَّة"(عبد الرحمن، ١٩٩٨: ٢٢٨) (Abdulrahman, 1998: 228)، ما ينقل الحجاج ليكون تقويميًّا، وذلك ما اعتمده السامرَّائي في كتابه النحو العربي/ نقد وبناء.

ثانيًا: السامرَّائي وكتابه....

إبـراهيم أحمـد راشـد السـامرَّائي، ولـد فـي مدينـة العمـارة جنـوبي العـراق سـنة ١٩٢٣م (العقيلي، ٢٠٠٤: ٩) (Al-Aqili, 2004: 9)، وهو أحد اللغويّين الّذين انمازوا بالثراء العلمـي والمعرفـي، وذلـك مـا تشـهد بـه مؤلَّفاتـه الَّتـي زانـت المكتبـة العربيَّـة بـالفكر المتجـدّد والثقافة اللُّغويَّة.

لقد جاءت تلك المؤلَّفات متنوّعة بين كتب نحويَّة، ولغويَّة، وأدبيَّة، بالإضافة إلى الكتب المُحقَّقة والمترجمة والأبحاث المنشورة، ومن تلك المؤلَّفات كتاب (النحو العربي/ نقد وبناء)، وهـو مـن محـاولات التجديـد والتيسـير فـي النحـو (عبـد الـرحمن، ١٩٩٨: ١٥٥) (Abdulrahman, 1998: 155) .

"وكان لاتِّساع ثقافة السامرّائي واطّلاعه الشامل المتخصِّص على مواد النحو العربي موروثه ومولّده، أثّر في تكوين منهجه في تناول مواد النحو وتحليلها : هذا المنهج الّذي قام على تمازج منهجين يكمل أحدهما الآخر: المنهج الوصفي... المنهج التطوري التاريخي المقارن" (السامرائي، ٢٠٠١: ٣٥) (Alsamurai, 2001: 35).

لم يكن الدرس اللّغوي في الكتاب بعيدًا عن التداوليَّة، بل أنَّه قام على أساسها، إذ درس المنجز اللّغوي للنحاة القدماء في إطار التواصل، ذلك أنَّ "اللّغة لا تؤدّي وظائفها إلا فيه... وبما أنَّ الكلام يحدث في سياقات اجتماعيَّة، فمن المهمّ معرفة تأثير هذه السياقات على نظام الخطاب المنجز"(الشهري، ٢٠٠٤: ٢١) (Alshahri, 2004: 21).

وعليه فيُمكن القول: إنَّ الغاية من تأليف كتاب النحو العربي/ نقد وبناء هي تيسير النحو وتجديده وفق السياقات الاجتماعيَّة الَّتي يطلبها التواصل مع المنجز النحوي القديم، الّذي نتج عنه الجانب الحجاجي، ذلك أنَّ الدراسة التداوليَّة هي: "دراسة المعنى التواصلي، أو معنى المُرسِل في كيفيَّة قدرته على إفهام المُرسَل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله"(الشهري، ٢٠٠٤: ٢٢) (Alshahri, 2004: 22) ، فلا يُمكن أن يتحقَّقَ الإفهام والإقناع إلا بوجود الحجاج.

في التأسيس النظري...

ارتكز البحث على دراسة الغرض اللغوي من كتاب النحوي العربي، إذ جعله السامرائي قائمًا على الاستعمال اللغوي التداولي فنتج عنه بناء جديد للنحو العربي تمثّل في تيسير النحو، وذلك انطلاقًا من روابط حجاجيَّة تتَّصل بالمرسل وعلاقته بالنحو العربي القديم فكان كتاب نقد وبناء.

إنَّ وجود عنصري النقد والبناء القائمين على الاستعمال التداولي يؤكِّدان صفة الخطاب الحجاجي، فهما يُقابلان القصد والمقام من جهة ويجسدان الحجاج النحوي من جهة اخرى ، لتوضيح ذلك نقول: إنَّ القصد يُحدِّدُ مجال التخاطب وطبيعة المُخاطبين الَّذين يستهدف المُرسِل التأثير فيهم (الرقبي، ٢٠١١: ٨٤) (Alraqabi, 2011: 84) ، وذلك ما فعله السامرّائي، إذ حدَّدَ آراء النحاة القدماء لينتقدها فكانت مجالاً للتخاطب الّذي يستدلُّ به في تحقيق الحجاج بوصفه "الأداة السلميَّة الّتي تضمّن التغيير في معتقدات المُرسَل إليه دون خسران"(الشهري، ٢٠٠٤: ٤٥٩) (Alshahri, 2004: 459). أمَّا المقام، فيُقصد به : العلاقة بين المُرسِل والمُرسَل إليه، ولا يُمكن أن يتحقَّق البناء النحوي الجديد (التيسير) إلا باعتماد الحوار الفكري والتواصل العقلاني، ذلك أنَّ المحاججة ليست التعبير عن رأي ما، "بل هي البحث ذاتيًّا عن المبرِّرات الَّتي قد تصلح للآخرين أيضًا، إذ إنَّ عمليَّة إقناع الآخر لا يُمكنها إلا أن تكون عموميَّة" (علوي، ٢٠١١: ٦٧) (Ealwi, 2011: 67).

لقد اعتمد السامرّائي في كتابه على ركني الحجاج النحوي، وهما: السماع والقياس (الملخ، ٢٠١١: ١٢١) (Almalakh, 2011: 121) ، فجاء السماع متمثِّلاً بالشاهد القرآني من جهة والشاهد الشعري والنثري من جهة أخرى : أمَّا الشاهد القرآني، فقد اعتمده السامرّائي لبناء قاعدة نحويَّة جديدة، إذ عاب على النحاة أنَّهم لم يُقيموا عليه قواعدهم النحويَّة (السامرائي، دون تاريخ: ١٢٨) (Alsamurai, without date: 128) ، وقد استشهد لذلك بقول الرازي: "إِذَا جَوَّزْنَا إِثْبَاتَ اللُّغَةِ بِشِعْرٍ مَجْهُولٍ فجوازُ إِثْبَاتُهَا أَوْلَى، وَكَثِيرًا ما أَرَى النَّحْوِيِّينَ مُتَحَيزينَ فِي تَقْرِيرِ الْأَلْفَاظِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ، فَإِذَا اسْتَشْهَدُوا فِي تَقْرِيرِها بِبَيْتٍ مَجْهُولٍ فَرِحُوا بِهِ" (الرازي، ١٤٢٠هـ: ٤٠١/٩) (Al-Razi, 1420 A.H: 9/401). وأمَّا الشاهد الشعري والنثري، فقد رفضه السامرّائي، إذ وقف منه وقفة شكّ وريبة، ولم يرتَضِه أساسًا لبناء القاعدة النحويَّة السليمة" (العقيلي، ٢٠٠٤: ٤٢) (Al-Aqili, 2004: 42).

نخلص مِمَّا سبق أنَّ السامرّائي ذهب إلى دمج الغرض التعليمي للنحو مع الغرض العلمي، ذلك أنَّ النحوي الّذي يعمل "في دائرة النحو التعليمي لا يرى في النحو العلمي البحثي فائدة علميَّة، لكنَّه عندما يؤوب إلى دائرة النحو العلمي يحرص كلّ الحرص على ردف الحكم النحوي بالحجّة" (العوادي، ٢٠١٩: ١٢٠) (Al-Awadi, 2019: 120) ، ما جعل القياس مُتكأً على السماع المتعلّق بالشاهد القرآني فقط ليكون خطابًا حجاجِيًّا موجّهًا هدفه الإقناع فـ"يكون له بالضرورة بُعد حجاجيّ" (الحواس، ١٩٩٧: ٣٣٠) (Alhawas, 1997: 330) هو التيسير.

في التكريس الاجرائي ...

المحور الأول: تجلّيات الحجاج:

يلتقي الحجاج مع الاستدلال عن طريق الإقناع، والإقناع عمليَّة عقليَّة خطابية يتوخّى بها المُرسِل توجيه المُرسَل إليه مع تغيير اعتقاده (حمودي، ٢٠١٢: ١٠٩) (Hamoudi, 2012: 109) ، فهو المطلب الأساس من الخطابات في مجال المناظرات اللّغويَّة يأتي له المُرسِل لتفعيل الحجاج بوصفه الممارسة "الَّتي يتمثّل فيها الخطاب الرامي إلى تحقيق الإقناع"(الشهري، ٢٠٠٤: ٤٤٩) (Alshahri, 2004: 449).

ويأتي الإقناع على طريقتين، أحدهما لغويَّة، والأخرى عقليَّة(عكاشة، ٢٠١٣: ٧٥) (Akasha, 2013: 48)، فأمَّا الإقناع اللّغوي، فيكون باستخدام التراكيب اللّغويَّة الدالَّة على الثوابت والحقائق مع بناء الجمل على هيئة قضايا تبدأ بمقدّمات وتنتهي بمسلّمات ونتائج، وأمَّا الإقناع العقلي، فهو الّذي يُخاطب فيه المُرسِل العقل بالحُجَّة والدليل والمنطق، فيبدأ بالمقدّمة الّتي تحدّد القضِيَّة ثُمَّ العرض لأصل المشكلة ثُمَّ الدليل والحجَّة وصولاً إلى النتيجة أو الحكم.

وعليه، فإنَّ الخطاب الحجاجي بما يحمله من وسائل إقناعِيَّة سيُكوِّنُ استدلالاً نقليًّا وعقليًّا، إذ لا يُمكن تصوّر استدلال من دون خطاب يُعبّر عنه ويُناصرهُ (الرقبي، ٢٠١١: ٧٥) (Alraqabi, 2011: 75)، و"هذه الطريقة تعتبر من وسائل الإقناع الّتي تعتمد دراسة الألفاظ ومعانيها داخل النصوص، كما تتضمّن ... دراسة الروابط الاستدلاليَّة الموصلة إلى القرائن... في ضبط القواعد اللّغويَّة والمنطقيَّة"(الرقبي، ٢٠١١: ٥٠) (Alraqabi, 2011: 50)، لذلك جاء حجاج السامرائي وفق استدلالين هما :

أولاً: الاستدلال الحجاجي النقلي (النص القرآني):

إنَّ النصوص القرآنيَّة الَّتي اختارها السامرّائي جاءت لإبطال حجج النحاة، إذ استعملها لتقوية حجَّته مع إثبات صدق رأيه، بالإضافة إلى تأثيرها القويّ على المرسل اليه ، وذلك ما يؤكّده قوله: "وكان على النحويّين أن يعتمدوا على القرآن لأنَّهُ أصَحُّ نصوص العربيَّة الَّتي وصلت إلينا للعناية الَّتي أولاها إيَّاه المسلمون في ضبطه لغةً ونحوًا وأداءً"(السامرائي، دون تاريخ: ١٢٧) (Alsamurai, without date: 127).

لقد اتَّكأ السامرّائي على النصوص القرآنِيَّة وصولاً إلى "التصديق الَّذي هو مناط الحجاج ونقطة الارتكاز فيه"(السبعان، ٢٠١٠: ٩٩) (Alsubean, 2010: 99) ، فهو نَصٌّ يمتلك سلطة متفردة في إقناع المرسل اليه، والمعنى: إنَّ "الحُجَّة النقليَّة تكمن طاقتها في كونها مجرَّبة من قبل الاستشهاد بها، فهي بالإضافة إلى معناها أو الحقيقة الَّتي تحملها تحمل بعدًا آخر من أبعاد الحجاج، إذ تجعل المخاطب يزداد اقتناعًا بالمضمون"(أبو مصطفى، ٢٠١٩: ٧٧) (Abu Mustafa, 2019: 77).

ويتجلَّى الاستدلال الحجاجي النقلي في كتاب السامرّائي عند إفراده جزءًا منه، وقد أسماه "مآخذ على النحو القديم"(السامرائي، دون تاريخ: ١٢٤) (Alsamurai, without date: 124) بيَّن فيه احتجاجه على النحاة ورفضه لما اعتمدوه من شواهد لبناء قواعدهم النحويَّة، إذ يقول: "ثُمَّ إنَّ العربيَّة في كتب النحو عربيَّة خاصَّة، ذلك أنَّ الكثير من أمثلتها وشواهدها نماذج تخيّرها أصحابها من شعر ورجز كان للضرورة فيه مكان وللشذوذ مكان آخر... حتَّى أنَّهم لم يستبعدوا أن يكون شيء من ذلك موضوعًا أو مصنوعًا"(السامرائي، دون تاريخ: ١٢٥) (Alsamurai, without date: 125).

إنَّ قول السامرَّائي السَّابق يتضمَّن احتجاجًا مباشرًا لما اختاره النحاة من شواهد شعريَّة اتَّخذوها لتكون مقياسًا على فصاحة العربيَّة، فجاءت حججهم النقليَّة معتمدة على "الكلام العربي الفصيح، المنقول النقل الصحيح عن حدِّ القلَّة إلى حَدِّ الكثرة، وعلى هذا يخرج ما جاء شاذًّا من كلام غير العرب من المولَّدين وغيرهم، وما جاء شاذًّا في كلامهم"(حسانين، ١٩٩٦: ١٥) (Hassanein, 1996: 15)، وذلك مِمَّا رفضه السامرَّائي رفضًا قاطعًا وإن

كـان الشـاهد مـن الشـواهد الشـعريَّة الَّتـي ذكرهـا سـيبويه، فـلا يصـحُّ قصـر النحـو علـى الشعر(السامرائي، دون تاريخ: ٩٧) (Alsamurai, without date: 97)، لأنَّ الشاعر قد يذهب إلى التقديم أو التأخير فيتجنَّب السهل الفصيح، وقد يوقع نفسه في الخطأ توخِّيًا للوزن، بل أنَّه – السامرَّائي – يرفض الشعر وإن كان صحيحًا (السامرائي، دون تاريخ: ٩٢، ١٠٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٠) (Alsamurai, without date: 92, 103, 125, 126, 129, 130)، فيقول: "هذا إن كان صحيحًا، وذلك لأنَّا نعلم أنَّ كثيرًا من شواهدهم محلّ نظر، فلم ينسب سيبويه مثلاً خمسين شاهدًا إلى قائل، ثُمَّ إنَّ الضعف بادٍ على هذه الشواهد شكلاً ومضمونًا"(السامرائي، دون تاريخ: ١٢٥) (Alsamurai, without date: 125).

لم يكُن الشاهد الشعري وحده مرفوضًا عند السامرَّائي بل أنَّه رفض النثر أيضًا، وقد عاب على النحاة ذلك فاستشهد بردِّ المبرّد على ثعلب في إحدى مناظراته حينما أخذ بقول إعرابيَّة رعناء وترك كلام الله ووصفه بأنَّه على حقّ(السامرائي، دون تاريخ: ١٢٦) (Alsamurai, without date: 126).

لقد قدَّمَ لذلك الرفض بمقدّمة حجاجيَّة قال فيها: "فإذا احتاج النحويّ إلى شيءٍ عزَّ عليه أن يلقاه في كلام العرب عمد إلى (زيد) و(عمرو) و(هند) وخاصمهم فتضاربوا على النحو الّذي نلمس في كتب النحو وإلا كيف يكون مثالهم: زيد هند ضاربها هو"(السامرائي، دون تاريخ: ١٢٥) (Alsamurai, without date: 125).

نخلص مِمَّا سبق أنَّ السامرّائي اتَّخذ من النصِّ القرآني حجَّة نقليَّة يستدلُّ بها على صدق حجاجه، وذلك ما تؤكِّدهُ مؤلَّفاته في النحو عامَّة، إذ "أولى الشاهد القرآنيَّ عنايته في أغلب دراساته النحويَّة، وربَّما غير مرَّة إلى الإفادة من كتاب الله العزيز لبناء القاعدة النحويَّة السليمة"(العقيلي، ٢٠٠٤: ٣١) (Al-Aqili, 2004: 31)، إنَّ النصَّ القرآنيَّ يمتلك من القوَّة الحجاجيَّة ما يجعل المرسل إليه يزداد اقتناعًا بمضمون التيسير في النحو، فعمل المحاجج لا يقتصر على "عرض المقدّمات الحجاجيَّة عرضًا يتوالى أو يتفاوت، بل إنَّ عمله يتجاوز ذلك ويتعدَّاه إلى إجادة العرض وحسن البسط"(السبعان، ٢٠١٠: ١١١) (Alsubean, 2010: 111)، ومن أمثلة الاستدلال الحجاجي (النقلي) في كتابه، نقله مجموعة من الآيات الكريمة وذلك أثناء حديثه عن التأنيث والتذكير، إذ ذهب إلى أنَّ التأنيث بالعلامة طارئ بالعربيَّة، فقال: "وإذا جئنا للفعل في العربيَّة واتّصاله بتاء التأنيث لأنَّ فاعله مؤنَّث، وجدنا هذه الحقيقة واضحة كلَّ الوضوح، وهي أنَّ العلامة ليست شيئًا لازمًا وإنَّ ذلك يوضح شيئًا من التطوّر التاريخي في تقرير هذه المادَّة اللّغويَّة، لتتَّخذ من القرآن الكريم مادَّة هذه المسألة اللّغويَّة، ولنقرأ الآيات الكريمة الآتية(السامرائي، دون تاريخ: ١٢٥) (Alsamurai, without date: 125):

قال تعالى: **(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)** (يوسف: ٣٠)

قال تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)** (الممتحنة: ١٢)

قال تعالى: **(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)** (الأعراف: ٤٣)

قال تعالى: **(الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)** (آل عمران: ١٨٣)

قال تعالى: **(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ)** (المائدة: ٣٢)

(وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (آل عمران: ٧٢)

(وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) (النساء: ٨١)

ومن الجدير بالذكر أنَّ القراءات القرآنيَّة كانت ذات نصيب في حجاج السامرَّائي، فقد احتجَّ على النحاة بأنَّهم تركوا الأخذ بها، مع انها حالة خاصَّة بالنصِّ القرآنيّ وذلك يجعلها حجاجًا يستدلّ به لتعميم حكم ما(الحُسني، ٢٠٠٨: ١٧٠) (Alhusni, 2008: 170) ، أي أنَّها معطيات حجاجيَّة اعتمد فيها السامرّائي مبدأ التدرّج من العموم (النص القرآني) إلى الخصوص (القراءات القرآنيَّة) وصولاً إلى تأصيل الحجَّة، فالمقام يستدعي قبولها وتصديقها(السبعان، ٢٠١٠: ١١٤) (Alsubean, 2010: 114).

استدلَّ السامرَّائي على صِحَّة حُجَّته، فأتى بمقدّمة قال فيها: "والقراءات في الموضوعات النحويَّة القوية فهي صحيحة بنقلها وسندها... وكان على النحاة أن يتّخذوا من مادّة القراءات مصدرًا يجدون فيه شواهدهم سواء أكانت القراءة من القراءات المشهورة أم لم تكن ؛ وذلك لان هذا الموضوع حظي بعناية المسلمين وحرصهم عليه حرصاً لا يدع مجالا لشيء من الطعن فيه والتنقص منه "(السامرائي، دون تاريخ: ١٢٧) (Alsamurai, without date: 127)، ليصل بها إلى نتيجة وهي التيسير، وقد تمثَّل هذا في قوله: "فكان حقًّا على

النحويّين أن يفيدوا من هذه اللغة ويأخذوا منها ويقيموا عليها قواعد نحوهم"(السامرائي، دون تاريخ: ١٢٨) (Alsamurai, without date: 128)، ثُمَّ اتبع ذلك بطائفة من الأمثلة ختم بها قضيَّته وصولاً لإقناع المتلقّي، ذلك أنَّ قداسة النصّ القرآني تجعل الخطاب موجَّهًا إلى الجمهور المتلقّي توجيهًا يُصيب في مرحلة أولى من الاقتناع"(السبعان، ٢٠١٠: ٩٢) (Alsubean, 2010: 92).

ثانيًا: الاستدلال الحجاجي المنطقي (العقلي):

انماز كتاب السامرّائي بذكر آراء النحاة في مسألة معيَّنة، فهي حجج اختارها السامرّائي وحدَّدها لتكون مقدّمات حجاجيَّة، فلا يتمُّ الحجاج إلاَّ بها "لأنَّها عبارة عن مسلَّمات لدى الجمهور لا يُمكن التأثير فيه إلاَّ بالانطلاق منها، فهي نقطة انطلاق الاستدلال"(الطيب رزقي، ٢٠١٧: ١٩) (Altayeb Rizki, 2017: 19). والمعنى أنَّ التلازم بين المقدّمات المُسلَّم بها عند المُرسل اليه والنتيجة يؤدِّي إلى الإقناع ، فالمُحاجُّ لا يفرض قضيَّته بل يُقدّم لها ما يستدلّ به على صدقه.

إنَّ السامرَّائي وهو يذكر تلك الآراء النحويَّة يسعى إلى تثبيتها في ذهن المرسل اليه ، فيعرض المسألة ويرمي به إلى مقصوده وهو التيسير، وهذا الأسلوب يتضمَّن قيمة حجاجيَّة مدارها حمل المرسل اليه على الاقتناع "من خلال الإبطاء والتدرُّج لا من خلال التعجيل والتسريع"(السبعان، ٢٠١٠: ١٢٠) (Alsubean, 2010: 120)، أي أنَّه حجاج غير مباشر فهو "عبارة عن علاقة دلاليَّة تربط بين الأقوال في الخطاب تنتج عن عمل المحاجَّة ولكن هذا العمل محكوم بقيود لغويَّة"(الرقبي، ٢٠١١: ٨٧) (Alraqabi, 2011: 87)، وهذا يستدعي قدرة المحاجّ لتكوين حُجَّة عقليَّة مُصاغة في قالب أسلوبي تمثّل في مقدّمة أو مقدّمتين تؤدّي إلى نتيجة يقبل بها العقل ويقتنع بصحبتها فيتخذ موقفًا ما وهذه غاية الحجاج(أبو مصطفى، ٢٠١٩: ١١٠) (Abu Mustafa, 2019: 110).

إنَّ تتبّع الاستدلال الحجاجي المنطقي (العقلي) عند السامرَّئي يكشف عن اعتماده وسيلتين عقليتين هما: القياس، والمقابلة التاريخيَّة، أمَّا القياس فهو: "قول مكوَّن من مقدّمات وقضايا إذا كانت مسلَّمة ورُتّبت الترتيب الَّذي يجب في القياس الصحيح، لزم عن ذلك القول المُرتَّب قول آخر يُسمَّى النتيجة"(أبو مصطفى، ٢٠١٩: ١١) (Abu Mustafa, 2019: 11). ويتّضح ذلك في قول السامرَّائي في باب المبتدأ والخبر: "قالوا: قد يكتفي المبتدأ بمرفوعه عن الخبر إذا كان المبتدأ وصفًا معتمدًا على نفي أو استفهام نحو: (أَقَائِمٌ زَيدٌ) فـ(قائم) مبتدأ و(زيد) فاعل سدَّ مسدَّ الخبر.

في مقابلتهم هذه هدر لأساس قويم ينبني عليه أسلوب بناء الجملة العربيَّة، وذلك أنَّ الجملة في العربيَّة مؤلَّفة من المسند والمسند إليه فعليَّة كانت أم إسميَّة، وعلى هذا فإنَّ (قائم) مسند و(زيد) مسند إليه فلا يصِحُّ أن يكون (قائم) مبتدأ وهو مسند وأنَّ (قائم زيد) هو كقولنا: (زيد قائم)، ولا عبرة في الاعتماد على الاستفهام أو النفي إذا لم يشترط الكوفيُّون ذلك مثلاً.

وفي قولهم إنَّ (زيد) فاعل سدَّ مسدَّ الخبر قلب للحقيقة الإسناديَّة والوجه أن يُقال: (إنَّ (قائم) مسند خبر مقدّم و(زيد) مسند إليه مبتدأ مؤخَّر"(السامرائي، دون تاريخ: ٧٢) (Alsamurai, without date: 72).

من خلال هذا النصّ يتبيّن لنا أنَّ السامرَّائي قد اعتمد مقدِّمتان هما:

مقدّمة كبرى: قالوا: قد يكتفي المبتدأ بمرفوعه عن الخبر .

ومقدّمة صغرى: في مقابلتهم هذه هدر لأساس قويم ينبني عليه أساس بناء الجملة العربيَّة .

ونتيجة هي: وفي قولهم: إنَّ (زيد) فاعل سدَّ مسدَّ الخبر قلب للحقيقة الإسناديَّة.

لقد استدلَّ السامرَّأئي على صِحَّة دعواه من أنَّ (قائم) خبر مقدّم و(زيد) مبتدأ مؤخَّر في قولهم: (أقائِمٌ زَيدٌ؟)، وذلك عن طريق القاعدة القياسيَّة التي اعتمدها النحاة في الجملة العربيَّة – فعليَّة أو اسميَّة – وهي المُسند والمُسند إليه، ولم يكتَفِ بذلك بل ذكر الأصل اللغوي الَّذي جعل النحاة يذهبون في قولهم (أقائمٌ زَيدٌ؟) هذا المذهب، إذ يقول: "والَّذي حفَّزهم على سلوك هذا المنهج هو ما مثَّلوا به من قولهم: (أقَائِمٌ الزيدانِ)، ففي هذا لا يصِحُّ أن يُقالَ؛: إنَّ (قائم) خبر مقدَّم و(الزيدان) مبتدأ مؤخَّر، وذلك لانعدام المطابقة بين طرفي الجملة من المسند والمسند إليه"(السامرائي، دون تاريخ: ٧٣) (Alsamurai, without date: 73).

وتتأكَّد حقيقة الحجاج في قول السامرَّائي السابق عند اعتماده على حجج أخرى تثبت وتقوّي ما ذهب إليه من تيسير في باب المبتدأ والخبر، وهي الحجج المقوّمة أو التقويميَّة(*)، فقد أضاف لما ذكره سابقًا نصًّا يُثبت فيه صِحَّة ما ذهب إليه معتمدًا على الاستدلال العقلي الَّذي يستدعي الإمكانات المنطقيَّة الَّتي يقبلها المُرسل اليه، وذلك باستدعائه ما يتبادر إلى ذهن المُرسل اليه، فجرّد من نفسه ذاتًا ثانية أنزلها منزلة المعترض على دعواه، إذ يقول: "وقد يتبادر إلى الذهن السؤال عن كيفيَّة تسوية هذه المشكلة الصعبة فأقول: إنَّ (أقَائِمٌ زَيدٌ؟) ألصق بالجملة الفعليَّة منه بالجملة الإسميَّة، وعلى هذا يتعيَّن أنَّ الوصف المُشتق يُقابل الفعل وأنَّ ما بعده هو المُسند إليه الفاعل وتوجيه القول في الوصف أنَّه اسم فاعل قام مقام الفعل ويكتفي بهذا"(السامرائي، دون تاريخ: ١٣٠) (Alsamurai, without date: 130).

(*) وهي (فعل استدلالي يأتي به المتكلّم بغرض إفادة المستمع مع نهوض المستمع بتقويم هذا العمل) (حمودي، ٢٠١٢: ١١٤) (Hamoudi, 2012: 114).

ويظهر من الأقوال السابقة أنَّ السامرَّائي اعتمد القياسي المنطقي، وهو من وسائل التعليق بين الأقوال وفيه: "يُصبح أحد القولين مُرتبطًا بالآخر عن طريق تعليقها بقول ثالث"(أبو مصطفى، ٢٠١٩: ١١) (Abu Mustafa, 2019: 11)، والمعنى: إنَّ النصَّ جاء مكوَّنًا من حجاج تجريدي(*)، تضمَّنته المقدّمة الكبرى تمثّل في اكتفاء المبتدأ بمرفوعه من الخبر إذا كان وصفًا، وحجاج توجيهي(**) تمثَّل في المقدّمة الصغرى، إذ اقتصر فيه السامرَّائي على وجهة النحاة وحدهم.

ثُمَّ ارتبطت المقدّمتان عن طريق تعلّقهما بقول ثالث هو النتيجة والَّتي جاءت لتمثّل الحجاج التقويمي(***)، إذ جمع فيه بين الاعتراض على القضِيَّة اللغويَّة وبين وجهته الخاصَّة.

إنَّ التلازم بين المقدِّمات والنتائج يُحقِّقُ الإقناع عند المرسل اليه، إذ إنَّ المُحتَجَّ "لا يفرض عليه رأيًا بل يُقدّمُ له ما يجعله يستدِلُّ من خلاله على صدق ما يذهب إليه"(أبو مصطفى، ٢٠١٩: ١١١) (Abu Mustafa, 2019: 111).

وأمَّا المقابلة التاريخيَّة فهي قول مكوَّن من شاهد تاريخي وحقيقة لغويَّة جمع بينهما السامرَّائي لتُكَوِّنَ حجاجًا استدلاليًّا منطقيًّا نتج عن وصل المسألة اللغويَّة بأصلها التاريخي بعد أن فصلت عنه، فهو استدلال غير مباشر "قوامه التأليف بين حكمين أو عِدَّة أحكام، تنشأ عنها بالضرورة نتيجة، وهو الانتقال من قضِيَّة إلى قضِيَّة ثابتة تلزمنا الضرورة المنطقيَّة بقبولها"(الرقبي، ٢٠١١: ٧٩) (Alraqabi, 2011: 79). ويتَّضح ذلك في قول السامرَّائي: "على أنَّ خلافهم في هذه المسألة لا يبلغ حقيقة مادَّة (الاسم) الَّتي لا تَتَّصل بما ذهب إليه الفريقان، ذلك أنَّ (الاسم) من المواد الثنائيَّة القديمة في العربيَّة وهي كذلك في اللغات الساميَّة الأخرى، فالسين والميم أو الشين والميم مادَّة الكلمة ولم تكن الألف إلاَّ زيادة اقتضاها الوصول إلى الساكن وهو السين؛ لأنَّ العربيَّة قد جرت على ألاَّ يُبتدأ فيها بساكن"(السامرائي، دون تاريخ: ٤٣) (Alsamurai, without date: 43).

فالنصُّ حجاجي لأنَّه أعاد اللفظ إلى أبسط صورة واستدلَّ على تطوّره المنطقي وفق ترتيب عقلي (الحُسني، ٢٠٠٨: ٨) (Alhusni, 2008: 8) ، مكوّنًا حركة حجاجيَّة عالمها اللغة ومحيطها التاريخ، وعليه فإنَّ المقابلة التاريخيَّة من الوسائل الاستدلاليَّة الَّتي وظَّفها السامرَّائي لتكون حجاجًا، "فمن الحجاج ما لا يرمي إلى أكثر من جعل الجمهور يُدرك

(*) (وهو الاستدلال الَّذي يتعاطى فيه المحتج تقليد البرهان الصناعي) (عبد الرحمن، ١٩٩٨: ٢٢٩) (Abdulrahman, 1998: 229)

(**) (وهو الاستدلال الَّذي يقتصر فيه المحتج على اعتباره وجهة المدعي وحده) (عبد الرحمن، ١٩٩٨: ٢٢٩) (Abdulrahman, 1998: 229)

(***) (وهو الاستدلال الَّذي يأخذ فيه المُحتَجُّ بوجه المعترض، بالإضافة إلى وجهته الخاصَّة بوصفه مُدَّعيًا) (عبد الرحمن، ١٩٩٨: ٢٣٠) (Abdulrahman, 1998: 230)

الأسباب الّتي حدث بالمحاجّ إلى تصوّر الأمور على هذه الشاكلة أو تلك" (برلمان، تيتكاه، دون تاريخ: ٢٩٩) (Parliament, Tittakah, without date: 299).

المحور الثاني: أساليب الحجاج:

يتميز الخطاب الحجاجي "بكونه خطابًا مبنيا وموجَّهًا وهادفًا يُبنى بناءً استدلاليًّا يتمُّ فيه اللجوء إلى الحجَّة والاستدلال والمنطق والعقل "(عبد الرحمن، ١٩٩٨: ٢٢٦) (Abdulrahman, 1998: 226) وموجهًا لفكرة تتطلَّب نقاشا حجاجيًّا بهدف تعديل قضيَّة ما وفق أسلوب حجاجي لغوي، وهو كلّ أسلوب يعتمده الكاتب في عرض قضيَّته مع اشتراط وجود المرسل اليه، ذلك أنَّ الحجاج فعل استدلالي "يأتي به المتكلّم لغرض إفادة المستمع وإقناعه"(الرقبي، ٢٠١١: ٨٦) (Alraqabi, 2011: 86)، بالإضافة إلى "أنَّ النصَّ الحجاجي هو خطاب لغوي تواصلي له بنية عرض تدخل فيها مجموعة من العوامل تُحدّد بعدها الحجاجي في الخطاب... عن طريق تقريب أطروحات المُرسِل إلى المتلقّي"(صادق، ٢٠١٥: ٨٦) (Sadiq, 2015: 86).

إنَّ استحضار المُرسل اليه موضوعًا وعلمًا – آراء النحاة – في خطاب السامرَّائي يؤكِّدُ أنَّه خطاب حجاجي ذلك "أنَّ الفعل الحجاجي لا يحدث إلا إذا التقى طرفان إن واقعًا مدركًا أو افتراضًا مُمكنًا"(السبعان، ٢٠١٠: ٩١) (Alsubean, 2010: 91). لقد توجَّه خطاب السامرَّائي إلى جمهورين، أحدهما: غائب تمثَّل في النحاة القداماء، والآخر: حاضر تمثَّل في المتعلِّم الّذي يطلب تعلُّم النحو والنطق الصحيح، فانبثق عن ذلك أساليب حجاجيَّة وصولاً لترجيح ما يطلبه من التيسير.

إنَّ أهمَّ الأساليب الحجاجيَّة الَّتي وظَّفها السامرَّائي في كتابه هي:

أوَّلاً: أسلوب الرفض، فقد اعتمد فيه ألفاظًا وعبارات تدُلُّ على رفضه المُطلق، وهو رفض مُعلن، من تلك الألفاظ لفظة (اصطناع) الّتي وردت في قوله: "وهذا قول لا سبيل إلى إبعاد ضعفه واصطناعه وهو غير مقنع"(السامرائي، دون تاريخ: ٦٦) (Alsamurai, without date: 66)، وذلك في باب المبني من الأسماء، إذ ذهب النحاة إلى أنَّ علَّة بناء الاسم لشبهه بالحرف وذلك شبه وضعي، ثُمَّ عاد ليؤكِّدَ ذلك الرفض بقوله: "أمَّا الشبه المعنوي فهو لا يختلف في طابع الاصطناع والاختراع عن سابقه، فقد قالوا: هو قسمان: أحدهما ما أشبه حرفًا موجودًا، والثاني ما أشبه حرفًا غير موجود"(السامرائي، دون تاريخ: ٦٧) (Alsamurai, without date: 67).

وتكستب القضايا اللّغويَّة الّتي يطرحها السامرَّائي حجاجها من الألفاظ والعبارات الّتي ترتبط بها، فقد استدعاها الخطاب لتكون أسلوبًا حجاجيًّا هو الرفض، وتكمن القيمة الحجاجيَّة في ذلك الأسلوب تأسيسًا على فكرة التيسير، ومن تلك الألفاظ لفظة (باطل) الّتي وردت في.

قولـه: "وهـذا الإعـراب كلّـه باطـل ومحـض تلفيق"(السـامرائي، دون تـاريخ: ١٠٦) (Alsamurai, without date: 106). وهذا ردّ السامرّائي واحتجاجه على من أعرب جملة التعجّب (مَا أَحسَنَ زَيدًا) فقال: إنَّ (ما) مبتدأ وهي نكرة تامَّة بمعنى شيء، و(أحسن) فعل ماض فاعله ضمير مستتر، و(زيدًا) مفعول به.

لقد اعتمد السامرَّائي على أسلوب الرفض في خطابه، فجعله من المقدِّمات الَّتي يُمكن الانطلاق منها وصولاً لنتائج هي قضايا لغويَّة يطلبها التيسير، أي أنَّها "نقطة انطلاق واستدلال"(برلمان، تيتكاه، دون تاريخ: ٣٠٨) (Parliament, Tittakah, without date: 308)، وعليه يكون الرفض "شكلاً من أشكال المقدِّمات الحجاجيَّة الّتي عليها يبنى المحاجّ حجاجه أنساقًا وصورًا وآلات"(السبعان، ٢٠١٠: ١٠٣) (Alsubean, 2010: 103)، والمعنى: أنَّ ذكر المقدّمات بالاعتماد على أسلوب الرفض يجعل المرسل اليه واقعيًّا لا افتراضيًّا ما يضمن تصديق القضِيَّة، ومن ذلك استعماله لعبارة (يرفض التوجيهات)، إذ جعل المرسل اليه واقعيًّا، فيقول: "وعلى هذا فإنَّ الباحث الحديث في النحو لا يستطيع إلاَّ أن يرفض هذه التوجيهات ويجري الكلام على الوجه الواضح السهل"(السامرائي، دون تاريخ: ١١٣) (Alsamurai, without date: 113).

إنَّ بنية الخطاب الحجاجي في أسلوب الرفض ليست متعالقة بالألفاظ فحسب، بل لا يمكن تحديدها بمعزل عن ظروف إنتاجها (تيسير النحو) بالإضافة إلى أنَّ الرفض يعني الاعتراض ما يقضي بعلاقة منطقيَّة تشترط في "الحد العلمي صفتي الجمع والمنع"(الملخ، ٢٠١١: ١٤٣) (Almalakh, 2011: 143)، إذ يعمد المُحاجج إلى تكثيف حجاجه بألفاظ وعبارات تدلُّ على الرفض لإقناع المرسل اليه أولاً وإثبات حُجَّته ثانيًا من خلال "لفت النظر إلى تعارضات ما يُصرّح به الخصم إبطالاً ونفيا(السبعان، ٢٠١٠: ١٤٩) (Alsubean, 2010: 149)، ومن أمثلته قوله: "أظنُّ أنَّ هذا شيء غريب غاية الغرابة وأنا لا أشعر أنَّ (أما) هذه أصلها (إن كنت) ولا نعرف تعويضًا على هذه الشاكلة، وكيف تكون (ما)عوضًا من (كان) فقد قالوا إنَّ (ما) زائدة فكيف تعوّض (كان) و(كان) من الأفعال المهمَّة في بناء الجملة، بالإضافة إلى أنَّ (الفعل) ذو قيمة كبيرة في الجملة العربيَّة"(السامرائي، دون تاريخ: ٨٠) (Alsamurai, without date: 80).

لقد جاءت عبارة السامرَّائي (هذا شيء غريب غاية الغرابة) لتمثِّل نقطة انطلاق الحجاج، إذ يرفض ما ذكره النحاة من حذف الفعل (كان) بعد (أن المصدريَّة) والتعويض عنه بـ(ما) في نحو قولهم: أما أنت برًّا فاقترب، والأصل فيه (أنت كُنت برًّا فاقترب) وهذا المنحى من الرفض يُحقِّقُ الاعتراض، فهو فعل إنجازي، استجابي، تشكيكي، تقويمي(عبد الرحمن، ٢٠٠٠: ٤٧٣) (Abdulrahman, 2000: 473) يكثّف الحُجَّة ويثبّتها، ومثلها

قوله: "إنَّ التماسَّ وجه شبه اسم الفعل للحرف على هذا النحو شيء موغل في الغرابة، وهو بعيد جدًّا ولا علاقة لغويَّة لما يُدعى بـ(اسم الفعل) والحرف"(السامرائي، دون تاريخ: ٨٦) (Alsamurai, without date: 86)، فجاءت عبارة (موغل في الغربة) تدل على اعتراضه ورفضه لما ذهب إليه النحاة.

وتتَّصل قضايا التيسير بالحجاج من خلال القصد ؛ "لأنَّ القصد يُعَدُّ حُجَّة بغض النظر عن كونه تلميحًا أو تصريحًا فالمرسل لا يتصوَّر اعتراضات المُرسَل إليه فيدحضها فقط بل ويسايرها حتّى يرى أنَّ خطابه قد بلغ" (شادي، ٢٠١٧: ٢٣٢) (Shady, 2017: 232) غاية الإقناع، وقد اختار السامرَّائي لذلك ألفاظًا وعبارات دلَّت على رفضه تلميحًا وليس تصريحًا، إذ يقول: "إنَّ تصرّفهم في إعراب المُركّب المزجي وبنائه على النحو الّذي أشاروا إليه يُشعر باجتهاداتهم الّتي لم تُبنَ على الاستقرار لما ورد في لسان العرب"(السامرائي، دون تاريخ: ٧٠) (Alsamurai, without date: 70).

ولمَّا كان رفض السامرَّائي تلميحًا جاء به على لسان الباحث الحديث، إذ يقول: "فعلى هذا فإنَّ الباحث الحديث في النحو لا يستطيع إلاَّ أن يرفض هذه التوجيهات ويجري الكلام على الوجه الواضح السهل"(السامرائي، دون تاريخ: ١١٣) (Alsamurai, without date: 113).

ثانيًا: أسلوب الحوار والمناقشة:

فقد اعتمده السامرَّائي لإقناع المرسل اليه، إذ جاء كتابه يحمل تصوُّرًا جديدًا لقضايا النحو ما يقتضي الاستعانة بأسلوب الحوار لمناقشة الحجج، ذلك أنَّ الحجاج "جنس خاصّ من الخطاب يُبنى على قضِيَّة أو فرضِيَّة خلافِيَّة يعرض فيها المُتكلِّمُ دعواه مدعومة بالتبريرات عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطًا منطقيًّا قاصدًا إقناع الآخر بصدق دعواه والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضِيَّة"(محمد العبد، ٢٠٠٠: ٤٤) (Mohammed Al-Abd, 2000: 44).

تميَّز كتاب النحو العربي بمناقشة آراء النحاة القدماء بالاعتماد على أسلوب الحوار (الحواريَّة أو التحاوريَّة) (الحُسني، ٢٠٠٨: ٦) (Alhusni, 2008: 6) فهو نصّ حجاجي استحضر منه المحاجج (السامرَّائي) نصوص النحاة ليُحاورها ويُجادلها مستعينًا بفعل القول، ذلك أن الحجاج يتمثّل في "إنجاز متواليات من الأقوال بعضها هو بمثابة الحجج اللّغويَّة، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج الّتي تستنتج منها"(العزاوي، ٢٠٠٦: ١٦) (Al-Azzawi, 2006: 16) ، وقد تمثّل ذلك في قول السامرَّائي في باب الاستغاثة: "قال النحاة: يقال : (يا لزيد لعمرو) فيجرُّ المُستغاث بلام مفتوحة ويجرُّ المستغاث له بلام مكسورة، وإنَّما فتحت مع

المستغاث لأنَّ المنادى واقع موقع المضمر، واللام تفتح مع المضمر، نحو لك وله"(السامرائي، دون تاريخ: ١١٦) (Alsamurai, without date: 116).

في القول السابق استحضر السامرَّائي قول النحاة لقصد مجادلته ومحاورته، وذلك من خصائص الحجاج، فالحوار يكون "بين طرفين أو أكثر يحكمه الاختلاف والتباين... ولهذا تتباين الآراء فتختلف عندها الحجج وتتضارب الأدلَّة والبراهين"(الحُسني، ٢٠٠٨: ١٤٤) (Alhusni, 2008: 144)، أي أنَّ غايته الحوار فأتبع قوله السابق بمتوالية من الحجج وصولاً لنتيجة هي: أنَّ حركة اللام ترجع لتوافق الحركات، إذ يقول: "أقول: لم يترك النحاة أيَّ مسألة إلاَّ فسَّروها... وهذا يعني أنَّهم لم يكتفوا بذكر المسألة والاستشهاد لها، ومن هذا أنَّهم قالوا: أن لام المُستغاث مفتوحة لأنَّ المُنادى واقع موقع المُضمر، وهذا كلام لا أفهمه فكيف يكون المنادى وهو اسم ظاهر واقعًا موقع المضمر؟" (السامرائي، دون تاريخ: ١١٦) (Alsamurai, without date: 116).

لم يَكتَفِ السامرَّائي بأسلوب الحوار والمناقشة الصريح، بل أتبعه بحوار غير صريح دلَّ عليه الاستفهام الحجاجي، وهو نمط من أنماط الاستفهام يستلزم تأويل القول ومناقشته انطلاقًا من قيمته الحجاجيَّة الّتي تتَّجه وجهة القول المنفي(العزاوي، ٢٠٠٦: ٤٦) (Al-Azzawi, 2006: 46)، فيكون الاستفهام حاملاً لافتراض دَلَّ عليه المضمون، والافتراض شكل "من أشكال المقدّمات الحجاجيَّة الّتي عليها يبني المُحاجّ حجاجه أنساقًا وصورًا وآلات"(السبعان، ٢٠١٠: ١١١) (Alsubean, 2010: 111).

لقد جاء الاستفهام ليؤدّي وظيفة حجاجيَّة إقناعيَّة(العوادي، ٢٠١٩: ٢٥) (Al-Awadi, 2019: 25)، هي إثبات قضِيَّة أو نفيها مع التأثير في المرسل اليه وحمله على التسليم بنتيجة واحدة يطلبها التيسير، ذلك أنَّ الناحية الإخباريَّة للاستفهام تحتمل نتيجتين، أحدهما: يقع الاسم الظاهر موقع المضمر، والأخرى: يجر المستغاث بلام مفتوحة وهو اسم ظاهر، لأنَّه مُنادى واقع موقع المضمر.

أمَّا الناحية الحجاجيَّة(العزاوي، ٢٠٠٦: ٤٥) (Al-Azzawi, 2006: 45) (للاستفهام) فلا تقبل إلا نتيجة واحدة هي: لا يجوز حمل الظاهر على المضمر مع فتح اللام وهو مستغاث، وذلك ما دلَّ عليه تتمة قول السامرَّائي: "ولم يغربوا هذا الإغراب إلا ليُفسِّروا فتح اللام في المُستغاث فجعلوها كاللام في المضمر، نحو: (له ولك). والّذي نعرفه أنَّ اللام مع المضمر لا تكون دائمًا مفتوحة فهي مكسورة مع ياء المتكلّم، ومن هنا نستطيع تفسير فتح اللام في الضمائر غير الياء بأنَّها مسألة ترجع لتوافق الحركات"(السامرائي، دون تاريخ: ١١٤) (Alsamurai, without date: 114).

إنَّ هذا النوع من الأساليب الحجاجيَّة يأخذ فيه المحتج بوجهة المعترض فيستحضر النصوص ليُحاورها مكوّنًا علاقتين تحاوريَّتين، أحدهما: علاقة تعالق تربطه بالنصوص المُستدعاة لتسهم في إنتاج الحجاج، وذلك ما نلحظه في النصّ السابق. والآخر: علاقة تفارق أو تناقض تربطه بنصوص الخصم "باعتباره نصًّا معارضًا وحجاجًا مُضادًّا"(الحُسني، ٢٠٠٨: ١٥٤) (Alhusni, 2008: 154)، وهذا ما يُمثِّله قول السامرَّائي في باب المبتدأ والخبر، إذ يقول: "قالوا: إنَّ (كان) تُزاد بين الشيئين المتلازمين كالمبتدأ وخبره نحو: زَيدٌ كَانَ قَائِم، والفعل ومرفوعه نحو: لَم يُوجَدْ كَانَ مِثلُكَ، والصلة والموصول نحو: جَاءَ الَّذِي كَانَ أكرَمتُهُ، والصفة والموصوف نحو: مررتُ برجلٍ كان قائمًا"(السامرائي، دون تاريخ: ٧٨) (Alsamurai, without date: 78)، فقد اعترض على النحاة وفارقهم في ذلك فلم يقبل بأمثلتهم وأتمَّ ذلك بنص معارض وحجاج مُضادٍّ، فقال: "إنَّ هذه الأمثلة مِمَّا لا يُمكن قبولها ولم يؤثَرْ من كلام العرب ما جاء على هذا النحو من التركيب المُتكلِّف الثقيل ذلك أنَّ الزيادة في العربيَّة تؤدِّي فوائد، واستقراؤنا للزوائد من الحروف يؤدّي فوائد منها التوكيد، ومنها تقوية البناء، ومنها زيادة المعاني، وهذه الأخيرة حاصلة في الأفعال الَّتي تعتريها أحرف الزيادة فتصرفها في المعاني المختلفة"(السامرائي، دون تاريخ: ٧٨) (Alsamurai, without date: 78).

وتندرج الحجج الَّتي جاءت وفق أسلوب الحوار والمناقشة تحت صنف الحجج القائمة على الاتِّصال التتابعي، إذ انتظمت فيه الحجج انتظامًا "يكاد تعالق عناصرها فيه يردّ إلى الزوج المجرّد (سبب/ نتيجة). والحفاظ على الاتّصال في هذا النوع من الحجج يضمن... الحجج القائمة على التواجد الحلولي"(السبعان، ٢٠١٠: ١٥٥) (Alsubean, 2010: 155)، وذلك ما يسعى إليه السامرّائي في حجاجه، إذ يطلب التيسير الّذي يُمثِّلُ حلاًّ لمشاكل النحو وصعوباته.

نتائج البحث:

عالج البحث الّذي بين أيدينا العلاقات الاستدلاليَّة الّتي اعتمدها السامرّائي في كتابه النحو العربي/ نقد وبناء، وقد تجسَّدت في إقناع المُرسَل إليه فكان الخطاب حجاجيًّا ذا بعد تداوليّ، وقد خلص إلى النتائج الآتية:

١. كشف البحث عن حضور الحجاج موضوعًا مُنجزًا في مؤلَّفات النحاة القُدماء وإن كان غائبًا.

٢. اتَّبع السامرّائي منهجًا يكاد يكون ثابتًا في كتابه أوّلاً وحجاجه ثانيًا، فكان يبتدئ بمقدّمات حجاجيَّة هب عبارة عن آراء النحاة في القضِيَّة، وذلك بعد تبويبها في الباب النحويّ الخاصّ بها.

٣. أثبت البحث اعتماد السامرَّائي على النصّ القرآنيّ مُتفرِّدًا لإثبات صدق حُجَّته.
٤. التلميح إلى أسلوب جديد من الاساليب الحجاج، وهو الاعتماد على التطوّر التاريخيّ بوصفه استدلالاً حجاجيًّا يُثبت صدق الحُجَّة اللّغويَّة ويُبطل تعدُّد الآراء والاختلاف في المسألة.
٥. وجود قيمة حجاجيَّة لكُلِّ خطاب يعرض للنحو بالتيسير، وتتجلَّى هذه القيمة في الملفوظات الَّتي تحكمها قوانين الاستعمال اللغويّ في العصر الحديث.
٦. إنَّ التجديد في النحو أظهر تجديدًا في أساليب الحجاجيَّة التقليديَّة (الاستدلال العقلي والنقلي)، فجاءت بشكل مغاير، إذ اعتمد أسلوب الرفض مع الاستدلال النقليّ، في حين اعتمد أسلوب المناقشة والحوار مع الاستدلال العقليّ.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

ابن منظور، محمد بن علي (٧١١هـ)، (١٤١٤هـ): لسان العرب، دار صادر، ط٣، بيروت .

الجوهري، أبي نصر اسماعيل (٣٩٣هـ)، (١٩٨٧): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: احمد عبد الغفار عطار، دار العلم للملايين، ط٤، بيروت.

حسانين، عفاف (١٩٩٦): في أدلَّة النحو، المكتبة الأكاديميَّة، ط١، القاهرة.

الحُسني، د. سلمية الدريدي (٢٠٠٨): دراسات في الحجاج/ قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم، عالم الكتب الحديث، ط١، إربد .

حمودي، د. محمد (٢٠١٢): الحجاج واستراتيجيَّة الإقناع عند طه عبد الرحمن/ مقاربة استمولوجيَّة، مجلَّة حوليَّات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد (١٢).

الحواس، مسعودي (١٩٩٧): البنية الحجاجيَّة في القرآن الكريم/ سورة النحل أنموذجًا، مجلَّة اللّغة والأدب، معهد اللّغة العربيَّة وآدابها، الجزائر، العدد (١٢).

خلف ، د. صباح علاوي (دون تاريخ): التجديد والتيسير عند إبراهيم السامرَّائي، د. صباح علاوي خلف، مجلَّة سُرَّ من رأى، المجلد (٤)، العدد ١١، السنة الرابعة.

الرازي، الإمام فخر الدين (٦٠٦هـ)، (١٤٢٠هـ): تفسير الرازي (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب)، دار احياء التراث العربي ، ط٣، بيروت.

الرقبي، د. رضوان (٢٠١١): الاستدلال الحجاجي التداولي وآليَّات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد (٤٠) العدد (٢).

السامرائي، د. إبراهيم (دون تاريخ): النحو العربي/ نقد وبناء ، دار الصادق، بيروت.

السامرَّائي، د. إبراهيم،(٢٠٠١): علماء ومفكّرون معاصرون، لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلّفاتهم، علَّامة العربيَّة الكبير والباحث الحجَّة، لأحمد العلاونة، دار القلم، ط١، دمشق.

السبعان، د. علي (٢٠١٠): الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل في نماذج مُمثَّلة من تفسير سورة البقرة/ بحث في الأشكال والاستراتيجيَّات، تقديم: هادي صمود، دار الكتاب المتّحدة، ط١، بيروت، لبنان.

شادي، رزيقة (٢٠١٧): آليّات الاستدلال الحجاجي في الخطاب الجرجاني/ مقاربة تداوليّة، مجلّة أبو ليوس، العدد (٦) .

الشهري، عبد الهادي بن ظافر (٢٠٠٤): استراتيجيّات الخطاب/ مقاربة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط١، ليبيا.

صادق، د. مثنى كاظم (٢٠١٥): أسلوبيَّة الحجاج التداولي والبلاغي/ تنظير وتطبيق على السور المكية، منشورات ضفاف كلمة للنشر والتوزيع، ط١، لبنان.

صولة، عبد الله (٢٠١١): في نظرية الحجاج / دراسات وتطبيقات، الشركة التونسية للنشر، ط١، تونس.

الطيب رزقي (٢٠١٧): البنية الحجاجيَّة في كتاب اللّؤلؤ والمرجان فيما اتَّفق عليه الشيخان، أطروحة دكتوراه، جامعة الإخوة منتوري، كليَّة الآداب واللّغات، القسطنطينيَّة.

عبد الرحمن، د. طه (١٩٩٨): اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط١، الدار البيضاء .

عبد الرحمن، د. طه (٢٠٠٠): في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط٢، الدار البيضاء .

العزاوي، د. أبو بكر (٢٠٠٦): اللّغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط١، الدار البيضاء.

العقيلي، د. حسين علي فرحان (٢٠٠٤): الدراسات النحويَّة عند ابراهيم السامرّائي ، دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت.

عكاشة، د. محمود (٢٠١٣): تحليل الخطاب في ضوء نظريَّة أحداث اللّغة ،دراسة تطبيقية لاساليب التأثير والاقناع الحجاجي في القرآن الكريم ، دار النشر للجامعات ، ط١، القاهرة.

علوي، حافظ اسماعيل (٢٠١١): الحجاج والاستدلال الحجاجيّ/ دراسات في البلاغة الجديدة، دار ورد الأردنيَّة، ط١ .

العوّادي، منى (٢٠١٩): الحجاج في خطاب الدراسات اللّغويَّة/ كتاب (منطق العرب في علوم اللسان) لعبد الرحمن الحاج صالح أنموذجًا، رسالة ماجستير، جامعة البويرة، كليَّة الآداب واللّغات، الجزائر .

كرم، أحمد (٢٠٠٠): في معاني الحروف، مطبعة الوراقة الوطنيَّة، ط١ .

لبرلمان وتيتكاه (دون تاريخ): الحجاج ،أطره ومنطلقاته وتقنيَّاته من خلال مصنّف في الحجاج الخطابة الجديدة، (عبد الله صولة)، ضمن كتاب أهم نظريَّات الحجاج في التقاليد الغربيَّة من أرسطو إلى اليوم، بإشراف حمادي صعود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الانسانية / كليَّة الاداب ، ط١ ، تونس .

محمد العبد (٢٠٠٢): النصُّ الحجاجيّ العربي/ دراسة في وسائل الإقناع، مجلَّة فصول، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، مصر، العدد (٦٠).

مصطفى، د. أيمن أبو (٢٠١٩): الحجاج ووسائله البلاغيَّة في النثر العربي القديم، سلسلة الرسائل الجامعيَّة، كليَّات الفارابي ، دار النابغة، ط١، الرياض.

الملخ، د. حسن خميس (٢٠١١): الحجاج في الدرس النحوي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد (٤٠)، العدد (٢).